فدوى طوقان

الشاعرة التى حملت رسالة ديان إلى عبد الناصر

"ليس رحيل فدوى طوقان جرحاً فلسطينياً، فحسب، إنه حرج عربى وإنساني، سيظل غائرا فى الوجدان والروح والذاكرة، لم تكن فدوى إنساناً حياديا، بل انحازت إلى قضايا العروبة انحيازا كاملاً وواضحا وأعطت بلا تمنن، وبلا مساءلة".

هكذا نعى الشاعر سميح القاسم، الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان التى يعتبرها أخته الكبرى فقد رحلت الشاعرة فجر الجمعة الموافق ١٢ ديسمبر ٢٠٠٣ عن عمر يناهز ٨٦ عاماً بعد أن قضت ٢٠ يوما فى العناية المركزة فى المستشفى التخصصى بمدينة نابلس بفلسطين إثر هبوط فى القلب، ذلك القلب الذى حمل الهم الكبير منذ الصغر، وقد نعتتها القيادة الفلسطينية فى بيان رسمى لها جاء فيه: إن الرئيس ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية ينعون إلى جماهير الشعب الفلسطينى والأمة العربية الراحلة فدوى طوقان التى عملت من أجل ترسيخ مبادئ الحرية والسلام والإنسانية جمعاء، إنها كانت رائدة الإبداع وواحدة من أعمدة الثقافة والأدب.

ولدت فدوى عبد الفتاح أغا طوقان، فى مدينة نابلس عام ١٩١٧م، فى أسرة عريقة وغنية، ذات نفوذ سياسى واقتصادي، ونشأت فى بيت علم وأدب، فهى شقيقة الشاعر المعروف إبراهيم طوقان، والدكتور أحمد طوقان الذى كان رئيساً للوزراء فى الأردن، لكن الأسرة تعد مشاركة المرأة فى الحياة العامة أمرا غير مستحب، مما منعها من مواصلة دراستها، فتركت المدرسة فى وقت مبكر، وقيل إن سبب عدم إكمال دراستها اكتشاف ملاحقة أحد الشبان لها، تقول عن قرار أخيها يوسف: "أصدر كلمته بالإقامة الجبرية فى البيت حتى يوم مماتي، كما هددنى بالقتل إن أنا تخطيت عتبة المنزل، وخرج من الدار لتأديب الغلام، وقبعت داخل الحدود الجغرافية التى حددها لى يوسف ذاهلة لا أكاد أصدق". وتضيف: "ما أشد الضرر الذى يصيب الطبيعة الأصلية للصغار والمراهقين بفعل خطأ التربية وسوء الفهم، كان أشد ما عانيته حرمانى من الذهاب إلى المدرسة وانقطاعى عن الدراسة".

علامة فارقة

يقول نقولا زيادة: "لو لم يكن أخوها إبراهيم قد تعهدها لما تفتقت حيويتها عن شعر أو نثر". وهى تذكر علاقتها مع أخيها الشاعر إبراهيم فتقول: "فى عام ١٩٢٩م عاد أخى إبراهيم من بيروت يحمل شهادته من الجامعة الأمريكية،

ليمارس مهنة التعليم فى مدرسة النجاح الوطنية، ومع وجه إبراهيم أشرقت حياتي، كانت عاطفة حبى قد تكونت مع تجمع عدة انفعالات طفولية كان هو مسببها وباعثها".

أصطحبها شقيقها إبراهيم معه إلى القدس، لتعتمد على نفسها تثقيفا وتطويراً ومثابرة، وقد شكلت علاقتها بشقيقها الشاعر علامة فارقة فى حياتها، إذ نجح فى دفع أخته الصغرى إلى فضاء الشعر، فاستطاعت وأن تخرج إلى الحياة العامة بسبب الطبيعة المحافظة لمجتمع نابلس بخاصة، وأن تشارك فيها بنشر قصائدها فى الصحف المصرية والعراقية واللبنانية، مما لفت إليها الأنظار.

وجاءت النقلة المهمة فى حياة فدوى مع رحلتها إلى لندن إذ حصلت على دورات فى اللغة الإنجليزية، ودرست الأدب الإنجليزى وتأثرت بأحداث مدارس الفلسفة الغربية فى أوائل القرن العشرين الميلادي، فى العامين اللذين قضتهما هناك من عام ١٩٦٢ حتى ١٩٦٣م مما فتح أمامها أفاقا معرفية، وجمالية، وإنسانية جعلتها على تماس مع منجزات الحضارة الأوروبية.

وبعد نكسة ١٩٦٧م خرجت الشاعرة لخوض الحياة اليومية والسياسية الصاخبة بتفاصيلها، فشاركت فى الحياة العامة لأهالى مدينة نابلس تحت الاحتلال، وبدأت عدة مساجلات شعرية وصحافية مع المحتل وثقافته، مما حدا

بوزير الدفاع الإسرائيلى موشيه ديان أن يطلبها لتكون وسيطاً بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر.

البحث عن الجديد

وتعد الشاعرة فدوى طوقان من الشاعرات العربيات القلائل اللواتى خرجن من الأساليب التقليدية مع محافظتها على الوزن الموسيقى والإيقاع الداخلى الحديث، وهى شاعرة تميل إلى السردية المباشرة بغنائية متميزة وعاطفة مذهلة، فى شعر يمزج بين الأسى والشكوى والمقاومة والصمود.

يقول الشاعر عز الدين المناصرة: "تختلف قصيدة فدوى طوقان عن زميلتها فى الشعر الحديث نازك الملائكة بانسيابيتها وابتعادها عن المعوقات المعرفية المنظومة، فهى تعبر عن عواطفها بحرارة ضمن المعجم الشعرى "الرومانطيقي" وفى زمن كان فيه الشعراء يميلون إلى التعبير عن الهم الجماعي، كانت قصائده تدور حول مركزية الذات الأنثوية".

ويشير محمود الريماوى إلى أن أجيالا عدة من شعراء فلسطين والأردن، قد استيقظت حساسيتهم الشعرية الأولى مع القراءة لفدوى طوقان التى شكلت محطة فارقة وحالة قائمة بذاتها، إذ حققت انتقالا سلسا من التقيد إلى التجديد، كما يشهد على ذلك ديوانها الأول وقصائدها التى نشرت تباعاً فى الآداب اللبنانية منذ منتصف الخمسينيات، وفيما يشبه

النمو أو التحول "الطبيعي" بغير ضجيج وإعلان، وبالنذر اليسير من المواكبة النقدية لتجربتها، وإن وجدت اعترافا وتكريسا لريادتها في "اعترافات" محمود درويش وسميح القاسم منذ بواكيرهما، بشاعريتها التي لا يجد الناقد عناء في ملاحظة أن درويش بالذات قد تأثر بها تأثير في بدايته ذات النزوع والملمح الغنائي.

ويقول الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي شهادته عن الشاعرة الراحلة: فدوى طوقان مؤسسة لكتابة لشعر الفلسطيني، وشعر المرأة ودورها في انتزاع حقها في الاحتياج والخروج من الرقابة العائلية، فضلا عن دورها التأسيسي، فهو نموذج للمرأة الفلسطينية صاحبة الموقف الوطني على امتداد سنوات الاحتلال.

وفدوى محبة للحياة، نشأت في بيت شديد المحافظة ولصرامة، وقف بجانبها أخوها المرحوم إبراهيم طوقان أحد أكبر شعراء فلسطين، وبدأ يعلمها كتابة الشعر، وقد انطلقت بعد موته مستقلة بصوتها الخاص وظلت تكتب الشعر إلى أيامها الأخيرة.

وتركت لنا كتاباً من أعذب وأجمل الكتب، حيث تناولت فيه سيرتها الشخصية، وهو كتاب "رحلة جبلية رحلة صعبة" كتاب ممتع وصادق استطاعت فيه أن تقول عن نفسها ما لم تستطع قوله في شعرها.

وعلى الصعيد الشخصي، كانت صديقة مقربة وتعددت لقاءاتنا فى أكثر من مكان، وإلى جانب أن فلسطين والثقافة العربية قد خسرتها فهى خسارة شخصية كبيرة بالنسبة لي، تضاف إلى خسارة الشخصية بفقدان الراحلين د. إحسان عباس، وإدوارد سعيد، وكانا صديقين عزيزين، ولكننا سنظل نقرأ شعر فدوى، وسنقرأ كتب إدوارد سعيد وإحسان عباس، وهى أسماء لا تزال أمامها أكثر من حياة.

وعن دور فدوى الريادى فى مجال الشعر الحديث يقول: فدوى طوقان من الأصوات المبكرة فى هذا المجال ودورها الريادى بارز لكل من يقرأ الشعر العربى الحديث ومعروف مساندتها لقصيدة الشعر المرسل أو شعر التفعيلة، وقد تميز شعرها بالانتقال إلى مراحل متفاوتة، من الكتابات الرمزية فى البداية إلى الكتابات السياسية المباشرة بعد نكسة ١٩٦٧ إلى كتابات التأمل الوجدانى فى الفترة الأخيرة من حياتها.

وأعتقد أن كتاباتها الصوفية الأخيرة هى تطور طبيعى فى مرحلة العمر الإنسانى وأحداثها التاريخية أيضا، وبفقدانها لها تطول القائمة المؤلمة للفقد الفلسطيني، ولا أدرى كيف سنتحمل خلو المشهد الثقافى الفلسطينى من أسماء هذه الرموز الوطنية الجميلة والمبدعة.

أعمالها الإبداعية

على مدى ٥٠ عاما، أصدرت الشاعرة الراحلة ثمانية دواوين شعرية، هي على التوالي: "وحدى على الأيام" الذى صدر عام ١٩٥٢م، و"جدتها" عام ١٩٥٧م، و"أعطنا حبا" عام ١٩٦٠م، و"أمام الباب المغلق" عام ١٩٦٧، و"الليل والفرسان" عام ١٩٦٩م، و"على قمة الدنيا وحيدا" عام ١٩٧٣م، و"تموز والشئ الآخر" عام ١٩٨٩م، و"اللحن الأخير" عام ٢٠٠٠م وهو آخر دواوينها.

ومن أعمالها النثرية: "أخى إبراهيم" عام ١٩٤٦م، و"رحلة جبلية رحلة صعبة" عام ١٩٨٥م، و"الرحلة الأصعب" وهى سيرة ذاتية كتبتها عام ١٩٩٣م فى العاصمة الأردنية.

وقد تمت ترجمت العديد من أعمالها إلى الإنجليزية والفرنسية واليابانية والعبرية والإيطالية والفارسية.

وحصلت على جوائز دولية وعربية وفلسطينية عديدة، وحازت على تكريم العديد من المحافل الثقافية، ومن بين الجوائز التى فازت بها جائزة رابطة الكتاب الأردنيين عام ١٩٨٣م، وجائزة سلطان العويس عام ١٩٨٧م، وجائزة البابطين للإبداع الشعرى عام ١٩٩٤م، وجائزة ساليرنوا للشعر من إيطاليا، ووسام فلسطين، وجائزة كفافيس الدولية للشعر عام ١٩٩٦م.

كما انتخبت عضوا فى مجلس أمناء جامعة النجاح بنابلس، وكان النشيد الرسمى للجامعة من نظمها، وبعد هزيمة ١٩٦٧م، دخلت فدوى معترك علاقة الأدب بالمجتمع والواقع، فشاركت أهالى مدينة نابلس حياتهم اليومية تحت الاحتلال، وشرعت بكتابة قصائد ومقالات صحفية ضد المحتل وثقافته، وقد ألهبت بشعرها حماس الفدائيين الفلسطينيين، الأمر الذى دفع وزير الدفاع الإسرائيلى آنذاك موشه ديان للقول: إن كل قصيدة لفدوى طوقان تصنع عشرة فدائيين، وقد منحتها جامعة النجاح الوطنية فى نابلس الدكتوراه الفخرية فى الآداب عام ١٩٩٨م.

رحم الله الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان التى تألقت وأثرت حياتنا بأشعارها الراقية الجميلة.

★ نشرت فى جريدة القاهرة فى ١١ ديسمبر٢٠٠٧

openkandil.com